

السقوط : اخر كتاب لكامو

صدر حديثاً للكاتب الكبير الير كامو قصة جديدة بعنوان «السقوط» La Chute أثارت ضجة أدبية كبيرة في الاوساط الثقافية . وقد رأيت « الآداب » أن تنقل الى قرائها المقال الهام التالي الذي كتبه الناقد المعروف « مارسيل ارلان » M. Arland في تحليل هذا الكتاب

في انسان ، هو ضحية الضحكة او المشارك فيها . وهكذا يولد القلق وتتحطم الوحدة . إن الحياة ليست بعد غناء ، بل هي حوار وصراع أليم . ولكن ما الذي يدعو في الضحك ؟ انا الذي أدافع عن المتهمين والمجرمين ... « أجل ، لأن خطيتهم لا تحدث لك اي ضرر . » أنا الذي انسى الإهانات ... « لأنك تنسى الكائنات » - انا الذي اراعي الشخصن للبشري « لتستعمله استعمالاً أفضل » أنا الذي ... « انت الذي تعتمد الى التواضع لتلمع ، والى الذل لتغلب ، والى الفضيلة لتضطهد » . وهذا هو شأن كل عمل أو إحساس يمكنني أن اعتبره كريماً او على الأقل منزهاً ، فيظهرون لي مظهره السيء . ولكن أخيراً ، انا الذي عاش هذه المدة الطويلة « انا ، انا ، انا ، بالذات ، انا كل يوم ، الأنا الذي لا يحب الا نفسه ، والذي ينسى أحد وجوهه ليزداد حباً لنفسه ، فاذا بكل شيء يسير على ما يرام ، وتبدو الحياة جميلة ، اذا كان يمكن أن نسمي هذا الاستعراض المراثي وهذه الدندنة السعيدة حياة . » وينتهي الأمر ، ويفقد النعيم . ان الانسان لا يستطيع أن يمس شجرة المعرفة من غير عقاب .

ينبغي عليه ، بعد الآن ، أن يعيش وهو يعرف أنه مجرم . وليس ذلك سهلاً على الاطلاق . إن الانسان يحاول أن يفلت من الحكم الذي هو في نفسه وفيما حوله ، يهدده . ولكن ذلك لا يمنعه من أن يواصل التحقيق ضد نفسه ، كما لو أن عليه قبل أن يموت أن يكشف عن آفقه أكاذيبه والايئنتظر شيئاً الا من يؤسه أو من ضياعه بالذات . فليس ثمة انسجام بعد ولا امان . أنه يتقدم الخطر ويفسد اللعب ويثير ويجازف . انها سلسلة من التجارب المهووسة : العزلة ، الحب ، العفة ، الفجور (الذي يعود عليه عن طريق النساء والخمر بالعزاء الوحيد الذي لا يخجل منه) . وبالاختصار ، فإنه ، بعد سقوطه من النعيم ، يمر في محن « المطهر » . ويبقى عليه أن يقيم في جحيم لائق به ، أو بالاحرى ، أن يحول سقوطه الى صعود جهنمي .

لئن لم يبق له اصدقاء ، فما أكثر شركاه في الجرم ! إنهم الجنس البشري كله . ذلك أن جميع الناس ، والله الحمد ، مجرمون ، وكل منهم يشهد بجريمة جميع الآخرين .

لاشك في أن « السقوط » هو بين جميع كتب الير كامو ، سواء كانت دراسات أم قصصاً أم مسرحيات ، أشدها عنفاً ؛ ولكنه كذلك ، وحتى في عنفه ، او فرها التباساً . إنه يحير ويقلق . وإن وجهه العميق يفر منا مسا اتضحت خطوطه . رجل يتكلم ، لا يني يتكلم ، ولكأن جميع كلماته ، على دقتها ونفاذها ، ليس من شأنها الا أن تغير معنى كلمة اخيرة هي الوحيدة التي تديرها حقاً وتعبر عنها . وهذا الرجل يضاعف الاعترافات ولا يكف عن أن يشرح نفسه ويعرفها ، ولكن يبدو أنه باعتباراته لا يفر من نفسه أقل مما يبحث عنها . إن كل شيء يجري كما لو أنه ، بما يذكره من حقائق ، يخدعنا ، وربما كان يخدع نفسه .

فمن هو هذا الرجل الذي يتكلم ويتنبأ ، والى أي حد يدبر عن رأي المؤلف ؟ إن النقد الاجتماعي والشكوى يمتزجان هنا ، والاحتقار والكبرياء والقلق ، والاستعطاء والرفض . واخيراً ما هي طبيعة الكتاب الذي يقدم لنا على أنه « قصة » Recit والذي يمت في مجموعه الى الدراسة والرمز والحكاية الأخلاقية أو الفلسفية والنقد الاجتماعي ؟ الحق أن « السقوط » اثر ملتبس في نوعه ، سواء في الوجه او في المعنى ، قد يخيب ظننا بين فترة واخرى ، ولكنه يستمد أخيراً من هذا الالتباس بالذات إرثانه ومذاقه الغريب وإذن ، فانه رجل يتكلم ؛ وذلك في مشرب بامستردام ، بعد أن ترك باريس حيث كان محامياً ؛ وقد اختار في ملجأه الجديد بالعاصمة الهولندية إسماً جديداً هو « كلامانس » وصفة جديدة هي « القاضي - المعترف » ويبدلي باعتباراته ؛ والمادة الا يعترف المرء الا بسقوطه . اما كلامانس فقد كان



الير كامو

رجل خير وشرف ، يدافع عن الضعفاء ويحمن الى الفقراء ويحبه الجميع ويعجبون به ؛ وكان يعرف أن يستمتع بصفاته ومزايه ، لا كرجل فرنسي ، وانما كإنسان مرتاح الضمير ومتصل اتصالاً مباشراً بالحياة . إنه في نعيم . وتبرز هنا الحياة التي ترمز اليها ضحكة . إنه لأمر غريب على رجل شريف مسرور بنهاره أن يعود مساء الى بيته فيسمع ضحكة ثابتة في حي منزله . فمن الذي يسخر ويستهزئ ؟ وبدا أن الضحكة ترتفع من النهر : ولكن ليس ثمة أحد ، ليس ثمة أي زورق . ومن الذي يضحك منه ؟ واحسرتاه ! لقد استيقظ

فريسا

النشاط الثقافي في الغرب

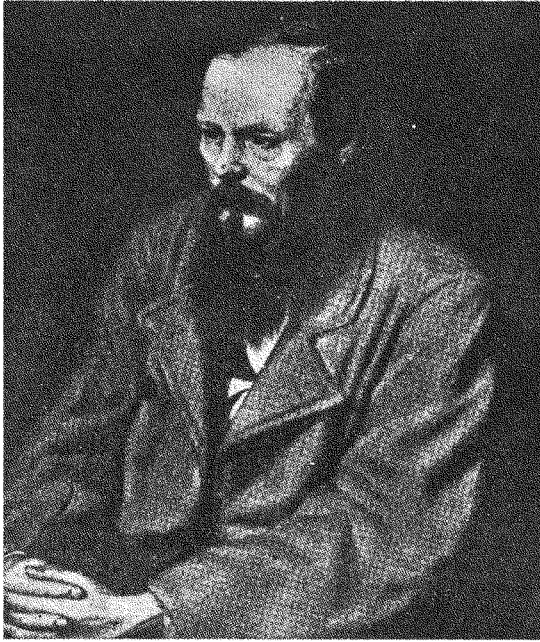
يخضعها للامتحان ويشبعها إشباعاً تاماً . إن هذا النبي هو عبد لنا رقيق ، وهذا الشيطان يردنا إلى إنسانيتنا الطاهرة ، ومحامي الرب هذا يخدم أخيراً قضية الرب . لقد جرب من أجلنا المغامرة ، وبفضله لن نذهب إلى أمستردام إلا كسواح أو كهواة لرامبرانت . وإن كامو الذي أقلق كثيراً من الأذهان يعرف كيف يرد لها بعض الأمل .

ولكن لماذا ؟ أيكون كتابه مظلماً حقاً إلى هذا الحد ؟ إنه مؤلم ، وهذا شيء مختلف جداً . وهو كتاب كاتب معلم . فان فن كامو لم يكن يوماً على هذا الجانب من الحيوية والمرونة والثوق . ولم يكن أسلوبه يوماً أوفر انسجاماً مع نفسه ومع جميع ألوان مزاجه وفكره . فان الفارسي لا يكف لحظة عن روثيته وساعه . انها عبارات دقيقة سريعة ذات سخرية كانت تكون أقل لذة لو انها لا تصيب المؤلف نفسه .

الاتحاد السوفياتي

« عودة » دستوفسكي

ما تزال موجة « التجديد » التي تحتاح الاتحاد السوفياتي منذ أشهر تبعث من أحمق النسيان كثيراً من الأسماء التي كانت مكفنة منذ أكثر من ربع قرن . ومن



دستوفسكي

بين هذه الأسماء ما يوضع في المحل الأول من النشاط الثقافي ، بعد أن كان ضحية الصمت الرسمي مدة طويلة .

ليس هناك ابرياء قط ، حتى ولا المسيح . وليس ثمة من عذر : ينبغي اصدار الحكم . ولكن كيف السبيل الى الا يحكم الانسان على نفسه ؟ بأن يهّم نفسه ، وأن يجعل من نفسه صورة هي من الدقة والعمومية في وقت واحد بحيث يعرف جميع الناس فيها نفوسهم . وهكذا ستغرق غلطة كلامانس في العار المشترك ؛ إن جميع الناس سيزداد التفاهم اليه فيوقظهم على الوعي وينير لهم رذيلتهم . وهكذا يصبح المعترف قاضياً ، ويصبح نبي العصور الحديثة إلهاً ينصب عرشه على الدوائر الجهنية ، بين الملائكة الفاسدين . اقبوا ، انظروا إلي ، اعرّفوا أنفسكم يا اخواني ورعاياي . إن الناس جميعاً مخلوقون للعبودية ، وسيكون كلامانس ، في أخوة الشر ، ضميرهم وصوتهم وسيدهم . ولكن لئن كان كلامانس ملكاً للجهنم ، فهذا لا ينبغي أن يجيها داخلية يتأكله . حين يستيقظ الضمير ، فيمكن لصاحبه أن يخشى كل شيء . وخوف المعترف - القاضي هو خوف أشد شراهة مما ينبغي وأكثر منطقية مما ينبغي . لقد اكتشف الخطأ في أجمل الأعمال ، ثم تزوج هذا الخطأ ونادى به . ولكن الشر نفسه ليس ممتعاً على الانشقاق والقسمة ، إن له وجهه الآخر الذي ينبغي اكتشافه . وهكذا تتجدد القضية ، وتتجدد معها البؤس .

لقد سبق للمحامي ، إذ كان لا يزال يحتفظ بضميره الطيب ، أن كان ذات يوم سائراً في الليل على جسر يؤدي به إلى بيته ، فرأى امرأة شابة منحنية فوق الحاجز فتردد هنيئة ثم واصل سيره ، وفجأة مزق الصمت صوت جسم يسقط في الماء ، وتبع ذلك صيحة ، وظل هو مرتجفاً ، مسرراً ، ضحية ضعف لا يعبر عنه ، ثم فكر : « لقد فات الأوان وبعد المكان » وتابع سيره من جديد . وقد امتلأ كلامانس الطيب بتبكيك الضمير فلم يستطع أن ينسى هذه الذكرى ؛ إنه يتذكرها كل ليلة ؛ وهو يتذكرها أيضاً في آخر اعترافاته فيقول : « أوه أيها الفتاة ! إقذني بنفسك مرة ثانية في الماء ليكون لي مرة أخرى الخطأ بأن ننفذ نفسينا معاً . » وأنا أعلم أنه يضيف « مرة أخرى ! أي طيش ! . ولكن لنطمئن أنفسنا ! لقد فات الأوان الآن ! سيفوت دائماً ، من حسن الخط ! » مها يكن من أمر ، فقد قيلت الكلمة ، وهذا الاعتراف الطويل يدور حول مسألة واحدة : الخلاص . إن كلامانس سيحلم دون شك بحرية في المغفرة ، وباستقلال في الخلاص ؛ وهنا تكمن كبرياؤه ، وبطولته أيضاً ، بل ورياءته إذا شئنا . على ان كلامانس يظل إنساناً لم يجد إلا مشرب « مكسيكو سيتي » عرشاً جهنمياً . بل ينبغي ألا نشك بأنه كاتب .

لقد أراد كامو من غير شك أن يجعل من بطله صورة مركبة ، صورة نموذجية ؛ ونحن نراه يبني ويحرك ، ومن هنا لم يمكن البطل إلا لبيسنا قليلاً بجد نفسه ، ولكن مسأله هي التي تمسنا ، ومعنى قصته . انها قصة دفعها المؤلف إلى نقطة يلتقي فيها المنطقي باللامنطقي . فلا ينبغي لنا بعد ذلك أن نجيب بمثل قولنا : « إن كان لأطيب الأعمال جانبها السيء ، فيبقى هناك نصيب الإرادة الطيبة ونصيب الفعلية : وهذا يكفي ليعيش الإنسان » والحق أن ذلك نقاش لا طائفة تحته . إن كلامانس هناك ليجيب : « ولكن ما الرأي إذا لم أكن أستطيع أن أستغني عن المطلق ؟ » وهذا صحيح : فان الإنسان لا يقاقل قط صيحات الاحتجاج . وإنه لنكران للجميل من جانبنا . ذلك ان كلامانس هو ضحية ، ضحيتنا وضحية المؤلف . إنه يعبر عن إحدى نزعاتنا الرئيسية ؛ إنه

النشاط الثنائي في الغرب

ذو أهمية أو حقيقة . وعلى هذا الأساس جمع كثير من الكتاب ثروات طائلة بالكتابة عن شو بقدر ما هلك جوعاً كثير من الشعراء بالترجم بالحلب . في هذا المهرجان اتضح لنا كيف أصبح شو أسطورة وكيف يكسب الباحثون قوتهم اليومي ببذور الشكوك وتعقيد المواقف في أي شخصية أو قضية .

وهكذا بالرغم من حداثة شو وطول حياته وامتلاء خزانة المتحف البريطاني برسائله ومخطوطاته سرعان ما وجدنا أنفسنا أمام الموقف نفسه الذي نقفه أمام الياذة هومروس أو غزوات الرسول . يروي المستر ونستن عن ولادة « الرجل والسلاح » وكيف بدأها شو فيأتي آخر ليشكك في صحة الرواية . ويزيد ذلك أن الجميع يروون عنه وان الجمهور يلح طلباً في روايات جديدة بعد أن حفظ القديمة عن ظهر قلب . وهكذا في محاضرة ألقاها المس باج سكرتيرة

شو في هذه المناسبة كدت أرى إمارات الإعياء على وجهها في كد ذهنها وراء طريفة جديدة أو عبارة براقة لشو . ولم تكن جاهلة بذلك بل كانت تردف كل طريفة بقولها انها تذكرتها لأول مرة مساء البارحة .

بعد كل ذلك لم يكن عجباً أن يغمر سوق المكاتب سيل من المؤلفات عن برنارد شو خلال الأسابيع القليلة . من ذلك الطبعة الأساسية لأعماله التي أصدرتها مطبوعات



كونستابل ورسائله المتبادلة مع باركر التي تلقي ضوءاً كبيراً على نشاطه في مسهل هذا القرن من مطبوعات فينكس . وكان مما كتب عنه كتاب « برنارد شو » لأرفن و « الرسول الهازل » لونستن . وكل من هذين الكاتبين قد عرف شو ، وإن نزلاً للصراع في أي منها عرفه أكثر . وهنا نحدد القارئ من هذه المعرفة التي قد تذهب عليه كميّة خاصة . فمن عرف شو كثير ون . والكثيرون من هؤلاء لم يضيعوا الفرصة في الكتابة عنه وفي ذكر هذه المعرفة على غلاف الكتاب . وعلى كل فان كتاب السيد أرفن أضخم وأحفل ، وبالإضافة فان شو نفسه قد راجع ، أو قل طالع ، القسم الأول منه .

وبالرغم من احتشاد الكتّابين بشتى الروايات عن شو ومواقفه ، وربما بالرغم من انحصار أهمية الكتّابين هنا وهناك فقط ، فان كتاب أرفن يتميز

وعلى رأس هؤلاء الذين بحثوا ، الروائي الشهير دستوفسكي الذي « أعيد له اعتباره » رسمياً بمناسبة ذكرى وفاته السبعين . ولكي نقدر أهمية هذا الحادث الأدبي ، نشير الى أن الطبعة الأخيرة الكاملة لمؤلفاته المنشورة في الاتحاد السوفياتي (والتي لم تكن تضم الا آثاره الأدبية المحض) تعود الى أعوام ١٩٢٦ - ١٩٣٠ . ومنذ ذلك الحين لم تطبع مرة ثانية الا بعض كتبه الثانوية . وعما يذكر أن الناقد الذي خصص لدستوفسكي ، عقب الحرب الأخيرة ، رسالة للدكتوراه قد هوجم هجوماً عنيفاً من قبل مجلة « ليتيراتورنايا غازيتا » التي تصدر في موسكو .

ولكن هذه المجلة نفسها لا تنقطع عن إزجاء الثناء والمديح ، منذ بضعة أشهر ، للروائي الروسي العظيم ، فيما هي تعلق على المحاضرات والمعارض والاجتماعات التي نظمت بمناسبة ذكرى السبعين . ثم إن « مطبوعات الدولة الأدبية » التي كانت قد أصدرت بعض كتب دستوفسكي وبينها كتابه « المعتوه » في نصه الكامل ، أخذت تعيد طبع مؤلفاته كلها وتعلن أن بين هذه المؤلفات كتابه المعروف « المأخوذون » Les Possédés الذي استبق الزمن فأعطى صورة صادقة ومخيفة عن الهوات التي سقطت فيها الروح الروسية اثر الثورة .

فكيف نفسر هذا الارتكاس للسياسة الشيوعية في الحقل الثقافي ؟ يخطيء خطأ فادحاً من يظن أن في ذلك تغيراً مبدئياً وتساهلاً عطوفاً تجاه مؤلف « الاخوة كارامازوف » إن الجهد الذي يبذله قادة الاتحاد السوفياتي ليعودوا ، في حياة الحزب والأمة ، الى مبادئ « المرحلة اللينينية » ، ينطوي بالضرورة على بعض التراخي في الصرامة التي طبعت الديكتاتورية السالينية . على أن ذلك لا يعني أن دخول الميدان الذي تقوم فيه المناقشة الأدبية قد أصبح الآن حراً ، مهما كانت الألوان التي يراد الدفاع عنها فيه . فلئن كانت آثار دستوفسكي تطبع من جديد ، فإنما هي تقدم الى القاري في إطار مدموغ بالفكرة الماركسية . ذلك أن النقاد « روريكوف » Rurikov (في مجلة « الكومونست » لسان حال الحزب الشيوعي) و « وارميلوف » و « زازلافسكي » يحاولون في المقالات التي كتبوها أخيراً عن دستوفسكي أن يقصروا الدور الذي يقولون انه لعبه على تصوير « مساوي الرأسمالية » و « المناقضات المحزنة التي يقع فيها المجتمع البورجوازي » و « عقم الجهود التي تنزع ، في قلب هذا المجتمع ، الى معارضة مبالغت الفردية » .

وبالعكس من ذلك ، كان النقد الماركسي يرى أن دستوفسكي بدأ غير قادر على أن يرسم في مؤلفاته صورة النموذج الأدبي الإيجابي وأن المخارج التي كان يقرحها على الضمائر البشرية هي « مخارج وهمية حقاً » .

انكسرتل

لمراسل « الآهاب » خالد القشطيني

مهرجان برنارد شو

التحدث عن برنارد شو كالتحدث عن الحب أو السياسة . مركب سهل ، يفي غرضنا بلم القراء والمهتمين حولنا دون أن يعني بأي وجه ان ما نقوله

بإدفاعه في تفسير هذه الروايات . وأرجو الملاحظة أنني أقول بإدفاعه وبكل ما يلفت الانتباه من خطأ أو صواب وتعمق ومخاطرة .

غير أن أياً من هذين الكتابين لم يثر من النقاش ما أثاره مقال قصير نشرته « الساندي تايمس » في أسفل صحيفتها الثانية يوم ٢٢ تموز الماضي . كتب المقال شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين . ولو لم تكن التايمس هي ناشرة المقال ، ولو لم تقدمه بكونه رأي الجيل الجديد في برنارد شو لما استرعى من أحدملاحظة ولا يتجاوز القراء الفقرة الأولى منه دون أن يطووا الصحيفة باحثين عن نتائج كرة القدم . ولكن قدر للمستر ولسن - كاتب المقال - أن يقرأه الجميع .

الجيل القديم ، وأنت منهم إذا تجاوزت الرابعة والعشرين ، لم يفهم شو مطلقاً . لا ت . اس . اليوت من جانب ولا باركر من الجانب الآخر استطاع أن يفهمه . فبرنارد شو لم يكن عقلياً ولا علمياً وإنما كان سايكولوجياً وصوفياً ! انه أقرب إلى باسكال منه إلى ماركس ، ومسرحياته أقرب إلى « أرض البوار » قصيدة اليوت و « يوليسيس » قصة جيمس جويس منها إلى أي أثر من إبسن ! وعندما نغفر أفواهنا عجباً ، يقذف المستر ولسن بفقرة إلى قعر حلوقنا تدعم صوفية شو على لسان شو : « انها تعود جميعاً إلى شعور أخوي ورغبة في نشاط جميل ونوع راق من الحياة » . إذا كانت هذه صوفية من شو فأنا لأعرف كيف تكون المادية العلمية . بل قل نحن لا ندرى أين يكون غوركي عندما تهتف « الأم » قائلة : « إن أولادنا الذين يموتون يموتون من أجل ... حياة من الحقيقة والعدالة . »

هذا ما كان على الزورق ؛ أما ما كان على الحشبة ، فقد تقدمت على مسرح الأولدكف فرقة برستل أولدكف بمسرحية « ميجر باربارة » وفرقة برمنكهام دبر تري « بقيصر وكليوباترة » أما قيصر وكليوباترة فقد شهدناها أولاً في باريس فلفتت هناك كل الإعجاب وشهدناها ثانية في لندن فاذا بها تلقى الإعجاب نفسه . وعندما نتذكر أن من اللحظات التاريخية أن يتفق المزاج الفرنسي والانكليزي على شيء ندرى إلى أي حد أجدد إخراج الرواية .

وهنا أجد في نفسي ملاحظة يحكي ذكرها . لقد أصبحت حقيقة مسلماً بها ، أو فرضوها علينا كذلك ، أن دور شو كرائد اجتماعي قد انتهى وإن مشاكله الاجتماعية التي نادى لمحاربتها قد انصلحت واستوى المجتمع البريطاني بشكل لا يمكن أن يكون أحسن مما كان . ومضى على هذا الأساس سواء المستر أرفن في كتابه أو المستر ولسن في مقاله يناقشان خلود مؤلفات شو بعد أن انتهى دورها الاصلاحية .

ولكن لحسن الحظ جاء الجواب مبكراً هذا الشهر في قيصر وكليوباترة . عندما تقدم الأله را بالبرولوك الشهر يتحدث عن استثمار مصر ويهيب شتامه على الأنكليز . وجهاً لوجه ، كان الجميع يستمع باذن الى المسرح وباذن الى انباء تأميم القناة ووعيد « الدول الحرة » . وهكذا كانت ضججات الجمهور تعلق الواحدة بعد الأخرى حتى وصلنا الى « مصر للمصريين » . غير أن الذروة جاءت عندما جاء ذكر قبرص فاحتج بوئينوس : « أن قبرص ليست ذات جدوى لأحد . » فاذا بعاصفة من التصفيق ، على الأقل من الكاليري ، تأخذني على غرة فسارعت الى يدي . وكانت همهمات وكانت ضحكات . وكان أن اهتديت الى الحقيقة أن جماهير الانكليز تأبى تكبير قبرص وأن اقوال شو ما زالت خلاصة أنباء الساعة .

كلا يا سادة أن شو لم يمت ولا مشاكله قد حلت . وأن شو لم يطعم باصلاحات جزئية أو بناء دور للعمال وإنما بتغيرات جذرية واقامة دول للشعوب .

خالد القشطيني

لندن

صدر حديثاً عن

دار المعارف

مجموعة

قصص الرحالة والمكتشفين

هذه المجموعة كانت تنتظرها المكتبة العربية من زمن بعيد ... إنها تصور لنا رجالاً من جميع العصور ومن الشرق والغرب ، خاضوا غمرات البحار ، وضربوا في مجاهل الأرض ، لا يقف في سبيلهم محيطات متلاطمة الموج ، ولا صحارى قاحلة ، ولا جبال شاهقة ، ولا مساحات الجليد المنبسطة فوق المناطق القطبية المتجمدة ... ليكشفوا للعالم عوالم جديدة وأرضاً جديدة وشعوباً جديدة بعاداتها وتقاليدها وغرائبها .

إن هذه المجموعة الطريفة الشائقة المحلاة بالرسوم والمزودة بالخرائط ، والمكتوبة بأسلوب قصصي جذاب ، تحكي لنا قصص هؤلاء الرحالين والمكتشفين ، فيستمتع بها الناشئة والكبار على السواء .

• ظهر منها

- ١ - خوف حر
- ٢ - فاسكو دي جاما
- ٣ - عبد اللطيف البغدادي
- ٤ - والتر رالي

• تحت الطبع

- ٥ - عمر التونسي
- ٦ - جيمس كوك
- ٧ - المسعودي

تن النسخة ١٢٠ ق.ل

تطلب من دارالمعارف - بيروت

لصاحبها ا. بدوان

بناية العسيلي ، ص.ب ٢٦٧٦

ومن جميع المكتبات الشهيرة في البلاد العربية